جامعة الانبار – كلية التربية للبنات

الدراسات العليا / الماجستير .

أ.م.د. يوسف سامي فرحان

الحركات الوهابية و السنوسية والمهدية وموقف الدولة العثمانية منها

لقد ادى ضعف وانحطاط الدولة العثمانية الى ظهور حركات تحمل دعوة الى مرجعية اسلامية كالحركات الاسلامية الناهضة للسلطة العثمانية مثل الحركة الوهابية والمهدية والسنوسية وقد كانت اول هذه الحركات هي :-

اولا / الحركة الوهابية :-

وهي حركة دينية سياسية ظهرت في نجد في وسط شبه الجزيرة العربية وعرفت نسبة الى محمد عبدالوهاب بن سليمان التميمي. ولد في العينية وسط نجد من اسرة أَنتسب اليها عدد من علماء الدين، وكان والدهُ عالماً وفقيهاً ، تعلم القران الكريم وحفظهُ عن ظهر قلب وعمرهُ عشر سنين . سافر الى مكة المكرمة والمدينة المنورة لتحصيل العلم عن مشايخه . اذ رحل الى الحجاز وتهامة والبصرة والاحساء وقرأ على جملة من علمائها . وتلقى علم الحديث النبوي والصحاح والسنن والمسانيد وكتب اللغة وغيرها عن شيخهُ العلامة عبدالله الحنبلي . وقد هاجم الشيخ محمد بن

عبدالوهاب ما راه من المعاصي عند زيارتهُ للبصرة وبغداد حيث اطلع على علوم التصوف وانكر على كثير من العلماء ما سمعهُ من العلوم التي لا تليق مع الاسلام – حسب فهمهُ . وشرع في الدعوة الى العودة الى الاسلام كما فهمهُ العرب الاوائل ، على اساس ذلك ظهرت حركة جديدة في نجد وسط شبه الجزيرة العربية عرفت نسبة له بالحركة الوهابية .

ويقسم التاريخ السعودي الى ثلاثة ادوار :-

١- الدولة السعودية الاولى ١٧٤٤م – ١٨١٨م .

٢- الدولة السعودية الثانية ١٨١٨م -١٨٩١م .

٣- الدولة المملكة العربية السعودية ١٩٠٢ م – ١٩٢١م .

أسس الشيخ محمد عبدالوهاب والامير محمد بن سعود دولة تقوم على نظام محدد وشمل هذا النظام المناصب التالية :.

- الامام (الحاكم) : وهو الرئيس الاعلى للدولة وصاحب السلطان الفعلية .

- ولي العهد : كانت ولاية العهد تعهد الى الابن الاكبر .

- امراء الاقاليم : كان الامام يعين على اقاليم دولته امراء يطلق عليهم امراء الاقاليم او حكام الاقاليم.

فظهرت الدعوة الوهابية في منطقة نجد وتمكنت من تأسيس إمارة سنة (١٧٤٤ م)، طلب السلطان العثماني محمود الاول من امير مكة اقناع الشيخ ابن عبدالوهاب واتباعه لبيان خطأ دعوتهم ، فان اصروا على رأيهم وأبوا الرجوع الى الحق فأن عليه محاربتهم دون تقاعس ، توفى الشريف مسعود بن سعيد سنة (١٧٥٢ م)، ولم ينفذ ما طلبه السلطان منه وبعد موته اضطرب حال الامارة في مكة وشهدت البلاد انتفاضات وحروب بين الاشراف من اجل المنصب .

واما الدولة الوهابية فقد استغلت الظروف السياسية واخذت بالتوسع ، وفي سلسلة من الانتصارات العسكرية نشر عبدالعزيز الاول ابن محمد بن سعود الدعوة الاصلاحية في كل الجزيرة العربية وخارجها، واكمل سعود الذي خلف عبدالعزيز انتصارات اباءه واجداده ، اذ ضم الاماكن المقدسة مكة والمدينة المنورة الى الامارة الوهابية وهكذا لاقت دعوة محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية التي حملتها سلمة آل سعود اتباعا اكثر وامتدت من البحر الاحمر حتى الخليج العربي ، ومن عماد حتى بلاد ما بين النهرين. وحاولت الدولة العثمانية مرات عديده ايقاف توسع الدولة الوهابية :-

١- حاولت عن طريق ولاية العراق : في حملة اولى قام بها ثويني بن عبدالله رئيس قبائل المنتفق ولكن فشلت حملته ، وحاولت في حملة ثانية قام بها ثويني نفسه بتجهيز من والي بغداد سليمان باشا ولكنه قتل ففشلت حملته الثانية ، وتمكن

الوهابيون من التسلط على بني خالد امراء الاحساء وكان خطرهم يهدد طريق الحجاج فبادر شريف مكة (غالب بن مساعد) بشرح تفاصيل الحالة الى السلطان سليم الثالث فطلب الباب العالي من وزير بغداد سليمان باشا مقاتلة الوهابيين ، ولما رأى العثمانيون عدم نجاح هذا الاسلوب قرروا اتخاذ استراتيجية جديدة تعتمد فيها الدولة على الجيش النظامي فجهزوا حملة علي كيخيا التي ضمت الجند المدرب والعشائر والاكراد ولكنهم فشلوا كما فشلت الاولى والثانية وقد ادى هذا الامر الى اقتناع السلطات العثمانية في اسطنبول بأن العراق العثماني لا يصلح بحال من الاحوال ان يقود الحركة الهجومية ضد السلفيين .

٢- حاولت عن طريق امراء مكة : ومنهم الشريف غالب الذي عزلته الحكومة العثمانية فيما بعد لتقاعسه في حرب الخوارج ، ثم اسندت الى والي مكة الجديد الشريف يحيى بن سرور .

اولت عن طريق مسقط : ولكن الانجليز افسدوا مخططهم لأن التوسع العثماني في المنطقة كان لا يتفق مع مصالح بريطانيا التي كانت ترعى في ذلك الوقت مصالحهما في الخليج العربي فخلال رحلة إياب السد سلطان بن احمد البوسعيدي امام مسقط تعرضت السفينة المقلة له لقراصنة البحر فقتلوه ، وبعد رحيله تمت المصالحة بين الخليفة بدر والامام سعود بن عبد العزيز .

لهذا قررت الدولة العثمانية ان تكلف واليها في مصر للقيام بمهمة القضاء على الدولة السعودية فصدر الامر السلطاني والي مصر محمد علي باشا بالتجهيز لقتال الوهابية فجهز جيشا وبعد حملات متعددة استطاع والي مصر ان يخرج الوهابيين من مكة والمدينة ، ثم تمكن ابنه ابراهيم باشا من افتكاك الدرعية معقل الوهابية وانتهت الحملة بتسليم عبدالله بن سعود نفسه فأخذ الى اسطنبول حيث قتل هناك.

ثانيا / الحركة السنوسية :-

أسست هذه الحركة بقيادة محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي، بدأت هذه الحركة في الجزائر ثم انتقلت الى ليبيا واتخذت زاوية لها في الجبل الاخضر ، فنمت الحركة السنوسية في عهد محمد السنوسي نموا كبيرا وكانت سياسته الحكيمة تمنعه من الاحتكاك بالدولة العثمانية او الدول الاوربية وحصر جل اهتمامه بنشر الدعوة بين القبائل وساعدته اخلاقه الرفيعة وصفاته الحميدة في اقبال الناس على الحركة السنوسية ، فحققت الحركة انتشارا عظيما في اوساط افريقيا والسودان والصومال وبعض البلاد الاسلامية ، وبدأت الدول الاوربية تشعر بخطر الحركة السنوسية وشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها ، لقد صدمت الدول الاوربية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية واشتاطت غضبا وحقدا على الاسلام ، وهي ترى قبائل وثنية مثل التبو وبلي والندى تدخل في الاسلام .

لم يبدأ العثمانيين اي تخوف من الحركة السنوسية باعتبارها دعوة الى الاصلاح لذا فقد قامت الحركة صلات وثيقة مع الدولة العثمانية ومن دعائم هذه الصلات البعثات والوفود بين الطرفين في عهد السلطان عبد المجيد عام (١٨٥٦ م)، حيث اهتم السلطان بالمبعوث السنوسي وعاد وهو يحمل امرا سلطانيا تعفى بموجبه الزوايا السنوسية في ولاية طرابلس الغرب من الجباية والضرائب، فقد كان السلاطين العثمانيين يحرصون على اقامة علاقة طيبة مع الشيوخ السنوسيين ، باستثناء التوتر الذي شهدته عندما رفض محمد المهدي السنوسي طلب السلطان عبدالحميد الثاني بإرسال مقاتلين لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا عام(١٨٧٧ م)، إلا ان السنوسي امتنع عن تنفيذ الطلب لاشتغاله بالبناء والانتشار بالدعوة والاستعداد للجهاد، وهذا الامتناع جعل السلطان عبدالحميد يرسل الرسل

الى الامام المهدي السنوسي للوقوف على حقيقة امره ، وتمت الخطوة الاولى في هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية الى واليها في طرابلس لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها ، اجاب الوالي كمال باشا بحسن نوايا الحركة السنوسية وانقياد الحركة وقادتها الى دولة الخلافة العثمانية.

واوفر السلطان عبدالحميد بعثة برئاسة رشيد ولي بنغاري ومعه الصادق المؤيد الى واحة الجغبوب في ليبيا ، فأحسن المهدي السنوسي استقبالهما وأكد انه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وبعد انتقال المهدي السنوسي من واحة الجغبوب الى واحة

الكفرة ارسل احد اتباعه وهو الشيخ عبدالعزيز العيساوي الى استنابول لتأكيد اخلاصه وولائه للسلطان العثماني ، اصدر السلطان اوامره في اجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس والاحترام اتجاه الحركة السنوسية واتباعها ، وارسل السلطان مع الشيخ العيساوي هدايا للمهدي السنوسي من بينها نسحه مطبوعة من صحيح البخاري له خاصة .

ومما زاد السلطان عبدالحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الاوربية من الحركة لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التي كانوا ينوون تنفيذها وحين اطمئن السلطان عبدالحميد الى صدق توجه الحركة السنوسية لدولة الخلافة العثمانية واخلاصها في العمل لسياسة الجامعة الاسلامية، بعث رسالة الى محمد المهدي السنوسي يحذره فيها من عمليات التسلل الاوربي الى داخل القارة الافريقية تحت شعار الكشف الجغرافي والبحث العلمي من جانب الانكليز والايطاليين وغيرها مبينا المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قبل هؤلاء، كما بين لمحمد المهدي السنوسي الوسائل العلمية الواجبة الاتباع لمواجهة اعمال المبشرين واعداء الاسلام .

ان الليبيين عموما ارتبطوا بفكرة الجامعة الاسلامية وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة اليها واكدوا في كل مناسبه ارتباطهم بهذه الدعوة وخاصة في ازمات الدولة ، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع اهل

طرابلس بجمع التبرعات وكتب على الاستمارة المعدة للجمع عبارة (إعانة جهادية) وبلغ مجمود التبرعات قرابة مئة الف فرنك .

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبدالحميد فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين ، واستمر هذ الشعور قائما لدى اهل المدن في ليبيا وزعماء الحركة السنوسية حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بأبعاد السلطان عبدالحميد فلم يشعر اهل الولاية ازاء هذه الحركة بالاطمئنان ولم يستبشروا بها خيرا بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان لما عرفوه عن الاتحاديين من بعد عن الحكمة ومناهضة الدين. وان كانت الخلافة الاسلامية العثمانية خرجت في آخر ايامها عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية ، ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عموما عدم الخروج عن الدولة العثمانية ، هكذا كان موقف الحركات السنوسية وزعماء ليبيا من الدولة العثمانية .

ثالثا/ الحركة المهدية :-

أسسها محمد بن احمد بن عبدالله الذي ولد في دنقلا عام (١٨٤٣ م) في السودان، وانتقل مع ابيه الى بربر فحفظ القران وعاد فانتقل الى شمال الخرطوم فدرس الفقه . مات ابوه وهو في الخامسة وفقد امه وهو في الحادي عشر، وقد كان محمد احمد ميالا منذ طفولته لحياة التدين والزهد.

كانت السودان تتبع مصر حيث تعرضت لغزو من لدى مصر سنة (١٨٢١ م) على يد الخديوي محمد علي باشا والي مصر لحساب السلطان العثماني بإسطنبول ، وسقطت مملكة سنار عام (١٨٢٢ م) وبدا العهد العثماني الذي استمر حتى اندلاع الثورة الوطنية السودانية (المهدية) عام (١٨٨١ م) ، بقيادة الامام محمد احمد المهدي القادم من منطقة دنقلا شمال السودان ومعه مقاتلون من كافة القبائل وانحاء البلاد ، وسرعان ما انتصرت الثورة ودخلت الانصار الخرطوم سنة (١٨٨٥ م)، وذبحت الجنرال شارلس غردون سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان الذي كان في نفس الوقت ضابطا عظيما بالاستخبارات البريطانية مما يشير الى تغلغل القوة الاستعمارية الاوربية في الشرق الاوسط وتأثيرها القوي على الاوضاع ، وفي الحقيقة كان والي مصر في ذلك الوقت الخديوي محمد توفيق باشا ميالا للفساد المالي والاداري لدرجة بعيدة ، مما دفع الشعب المصري للثورة بقيادة احمد عرابي قائد الجيش وكان رد فعل الخديوي توفيق هو الاستعانة بالإنكليز الذين لم يترددوا في اجتياح مصر بجيوشهم عام (١٨٨٢ م)، ولعل غزوتهم لمصر هو تحسب للثورة التي اندلعت في السودان قبل ذلك بعام وثورة كالمهدية امر لا يمكن ان تسكت عليه بريطانيا لأنه يهدد مصالحها في افريقيا والشرق الاوسط .

ومن ناحية اخرى كان هناك ما يدل على الروابط الشعبية بين المصريين والسودانيين حيث ان الامام المهدي وانصاره كانوا معجبين بأحمد عرابي وبثورته ،

وقد امر المهدي الانصار بأن لا يقتلوا غردون باشا لأنه كان ينوي مقايضته بأحمد عرابي الذي اعتقله الانكليز ،ولكن احد الانصار ارسل رمحه واهلك غردون ومصير الاحتلال البريطاني الذي حاق بمصر عام (١٨٨٢ م) سرعان ما حاق بالسودان كذلك.

لهذا كان قيام الحركة المهدية كرد فعل على الاوضاع التي كانت قائمة في السودان وعلى الحالة التي وصل اليها المسلمون من ضعف وتأخر وجهل وتحكم الاعداء بهم ،وكرد فعل ايضا على الاعمال الصليبية التي استفحل امرها ، فتعرف محمد احمد المهدي على عبدالله التعايشي واعلن انه المهدي المنتظر ثم هاجر هو وصاحبه الى غربي السودان يجمعون الانصار ، فالتف حوله الرجال واصبح سيد السودان بعد ان استسلم له حاكم دارفورد وسلاطين باشا النمساوي ، ثم استسلمت للمهديين جبال النويا وقتل هيكس باشا اعظم قواد الامبراطورية البريطانية في موقعة شيكام المشهورة عام (١٨٨٣م)، ودمر الجيش المصري في تلك الموقعة، وتحرك جيش المهدي نحو الخرطوم فتم مصارها ، وفتحت في سنة (١٨٨٥ م) ، وانسحب الانكليز والمصريون من السودان ، وبموجب هذا الانسحاب من السودان اخليت كل المناطق التي كانت تابعة للسودان وهي الصومال ومنطقة هرر وارتيريا من الجنود المصريين واصبحت مناطق فارغة لا تستطيع الدولة العثمانية لضعفها ان تملئ هذا

الفراغ ، فأسرعت الدول الاستعمارية التي وصلت في المنطقة كل دولة في بقعة كانت مخصصة لها حسب اتفاقية سرية .

وبعد سيطرة المهدي على السودان لم تطل حياته فقد وافته المنية في عام (١٨٨٥ م)، وخلفه صاحبه السيد عبدالله التعايشي ، وفي عام(١٨٩٦ م)، تم تشكيل جيش مصري تحت قيادات انكليزية من اجل اعادت فتح السودان بقيادة كتشنر وكانت اوضاع السودان غير حسنة ، ولم يكن عبدالله التعايشي تلك الشخصية التي يلتف حولها قادة المهديين فاستطاع الجيش المصري التقدم ودخل مدينة ام درمان بعد معركة كرري عام(١٨٩٨ م)، ورفع على الدوائر المصرية العلمان المصري والانكليزي وطبق عليه الحكم الثنائي المصري والانكليزي وعرف بهذا الاسم السودان المصري والانكليزي.

اما الموقف العثماني من المهدية فقد اتسم بالعداء الواضح لهم متمثلا في رفض السلطان العثماني والتأكيد على ان السودانيين هم قوم من غير الاتراك ومن هذا الباب تدخل المهدي الى ساحة الفكر القومي الذي تصدى للعثمانية والتتريك.

اما الموقف العربي شهد تعاطف كبير وارتباط تاريخي بين الثورة المهدية والاحداث العربية والشاهد ان المهدي اثناء حصار الخرطوم طلب من اتباعه المحافظة على حياة الجنرال غوردون من اجل ان يفتدي به احمد عرابي فضلا عن التحاق عدد من

رجال عرابي بالثورة المهدية ، ولم يتغافل المهدي عن مصر وكان يتطلع الى تحريرها من الحكم العثماني والاوربي.

المصادر :-

١- ياسين بن علي ، خروج الوهابية على الخلافة العثمانية ، (مجلة الزيتونة ، ١٤٤٠ هـ -٢٠١٩ م) .

٢- محمد الفهد العيسى ، الدرعية : قاعدة الدولة السعودية الاولى ،(ط١ ، الرياض ، مكتبة العبيكان ، ١٩٩٥ م) .

٣- محمد صادق اسماعيل ، الحركات الاسلامية في العالم العربي ، المنهل -٢٠١٤ م، ص١٠ .

٤- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في افريقيا ،ط٣، ٢٠٠٩م ، بيروت ، دار المعرفة)، ص١٥ .

٥- علي محمد محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، ط١، (القاهرة ، مكتبة التابعين ، ٢٠٠١ م) .

٦- الحسيني معدي ، الملك محمد بن ادريس السنوسي ، المنهل – ٢٠١٢م ،

٧- سعد محمد الحسن ،المهدية والاسلام منذ اقدم العصور حتى اليوم ، ط١،(مصر، دار الكتب العربي ،١٩٥٣ م).

٨- محمود شاكر ،السودان ،(ط٢ ،المكتب الاسلامي ،١٩٨١ م).

٩- الفاضل عباس محمد علي ، السودان يكون ام لا يكون ،(ط١،جزيرة الورد ، القاهرة ،٢٠١٢ م) .